الإعلام في فكر مالك بن نبي : مقاربة استقرائية

د: عزي عبد الرحمن

تعتبر هذه الدراسة قراءة استقرائية(inductive) في العلاقة الكامنة و الضمنية بين فكر مالك بن نبي، يرحمه الله، و الإعلام[1] في المنطقة العربية الإسلامية أو ما يسيمه بمحور طانجة –جاكرتا، ذلك أن ابن نبي لم ينظر إلى الإعلام بوصفه مجال نظري مستقل بقدر ما يمثل أداة تبليغية حرفية إذ لجأ نفسه إلى المقالة الصحفية[2] قصد مخاطبة القارئ بما كان يعتبره أزمة ثقافية و حضارية بالمنطقة.

توفي مالك بن نبي يرحمه الله في فترة[3] لم تكن فيه الفضائيات قد اكتسحت "المجال العام" في المحور المذكور، ثم أن تكنولوجيا الاتصال و الإنترنت لم تنفذ بعد إلى الحيز الشخصي والجو "النفسي الاجتماعي" بالشكل الذي نشهده الآن، غير أن قراءته "المتبصرة" لحال الأمة في تلك الفترة أقرب ما يكون من واقع الحال الآن و الذي يشهد التحول من حالة "الركود" التي شخصها ابن نبي بدقة إلى ما يمكن اعتباره تفكك تتابعي بإسهام إعلامي[4] في سياق "دورة الانحدار الحضاري."[5]

فالأزمة في الرقعة الإسلامية حضارية قبل أن ترتد في المجال السياسي و الاقتصادي و التربوي و ما يهمنا في هذه الدراسة "الإعلامي." و إذا فإن مسألة الإعلام بالمنطقة حضارية بالدرجة الأولي. و بتعبير آخر، تكون الحضارة المتغير المستقل، و الإعلام أحد المتغيرات التابعة في هذه المقاربة.

ولعل هذا التناول الحضاري يستدعي بعض التوقف عن الدلالة الذي يتضمنها مفهوم ابن نبي عن "الحضارة." إن قراءة تأويلية في نص ابن نبي تظهر عناصر متداخلة تشكل ما يسمى "بالتركيبة الحضارية:"

أ) أن "الحضارة" تشير إلى "الجماعة التاريخية" التي تتشكل في ارتباطها الأساس بالمعتقد على النحو الذي نجده في تعبير الحضارة الإسلامية، أو المسيحية أو البوذية أو البرهمية ، الخ. و يتفق هذا الطرح مع عدد من دارسي الحضارات في الغرب أمثال أرنولد طوينبي[6] و صامويل هانتغتون[7] إذ اعتبر هؤلاء على اختلاف مشاربهم أن المعتقد هو المحرك الأساس الذي يمكن أن يرقي بأي مجتمع إلى منزلة "العالمية." أما المجتمعات التي تتأسس على "متغيرات ديمغرافية" فحسب من مثل القومية و الوطنية و القبلية و اللغوية و الخبرة المشتركة، الخ. فنفهم من ذلك أنها ثقافات نسبية و "محلية" لا ترقي إلى مستوى الحضارة.

ب) أن الحضارة تتحق إذا كانت هناك صلة "حقيقية" بين "مثل" (بضم الميم و الثاء) الحضارة (المبررات في لغة ابن نبي) و السلوك في شتى مناحي الحياة. أما إذا كان هذه الصلة مفقودة (أو غير ترابطية[8] في تعبيرنا)، تصبح تلك الحضارة "عاطلة" أو خارج التاريخ على النحو السائد في الرقعة الإسلامية منذ ، و في تعبير بن نبي، مرحلة ما بعد الموحدين.

ت) أن الحضارة "شحنة نفسية اجتماعية" أو "حالة تاريخية حاسمة" إن تحققت جمعت و استوعبت الطاقة الكامنة في المجتمع و دفعتها إلى إنجاز مبررات الحضارة، و إن غابت تشتتت هذه الطاقة و انطفأت و أفلت و خرجت من المعادلة الاجتماعية التاريخية.